سعيد الأفغاني
أستاذ العربية في كلية الآداب

في أصول النحو

طبعة ثانية

مطبعة الجامعة السورية
١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله منزل الكتاب بلسان عربي مبين ؛ والصلاة والسلام على المبعوث حياةً للعرب ورحمةً للعالمين .

كانت كليات الجامعة السورية قبل العام الدراسي (١٩٤٨ — ١٩٤٩) تتبع في تدرج طلابها نظام السنين المرعي في جامعات بريطانيا وأمريكا ومصر ، ثم رأى الاكثرون من الاساتذة في كلية الآداب وكلية العلوم اتخاذ نظام الشهادات المرعي في جامعات فرنسا ؛ فسمى قسم اللغة العربية في كلية الآداب لطلابه شهادات ثلاثاً يؤدونها على النسق الآتي :

١ — شهادة تاريخ العرب والاسلام في السنة الثانية

٢ — 〃 علوم اللغة العربية 〃 الثالثة

٣ — 〃 الآداب العربية 〃 الرابعة

أما السنة الأولى فسميت شهادتها بـ (الثقافة العامة) ويتلقى فيها الطلاب محاضرات في اللغة العربية وآدابها وفي التاريخ والجغرافية ، وفي علم الاجتماع ، مع دروس في اللغة الأجنبية التي يتابع الطالب دراستها طول السنين الأربع دون انقطاع .

وكان عليّ وضع منهاج للنحو والصرف في شهادة (علوم اللغة العربية) على وجه ينسجم فيه في الجملة هو ومناهج التفسير والحديث وعلوم البلاغة وفقه اللغة في الشهادة نفسها ، فآثرت ان يدرس الطلاب النحو فيها عن طريق الادوات ، وأن تكون ثقافتهم فيه ثقافة شواهد كما هي ثقافة قواعد ، فاخترت لهم نحوهم جاعلاً مرجعهم الاساسي

فيها كتاب (مغني اللبيب) لابن هشام ، أما الصرف فيدرسون بحوثاً فيه من وجهتي النظر الكوفية والبصرية في كتاب (الانصاف في مسائل الخلاف) لابن الانباري .

وقد ارتحت الى ثمرات هذا المنهج مدى سنتين ، وقدمت بين يدي دراستهم تلك ، محاضرات أربعاً في (الاحتجاج، والقياس، والاشتقاق، والخلاف) هي مادة هذا الكتاب.

حرصت في هذه المباحث على ان يتزود الطلاب بمادة صالحة فيها مع مسايرة النظرة التاريخية على قدر الامكان ، وراعيت فيها مستواهم وحاجتهم ، ولولا ذلك لوجب طي بعض ما نشر ونشر بعض ما طوي ، فكثير من القضايا مررت به خطفاً لانه بحث بإسهاب في دراستهم السابقة .

وكنت أود التريث في الطبع حتى أنهي موضوعات اخرى في (الادوات في اللغة العربية) وأعيد النظر فيما كتبت ، لكن عناء الطلاب في الاستملاء والنفقة الغالية التي يكلفهم إياها النسخ بالآله الكاتبة ، ثم كثرة الخطأ والتصحيف من بعد العناء والانفاق..

كل ذلك حمل مجلس كلية الآداب على اقتراح الطبع في مطبعة الجامعة السورية .

وأنا موقن بأن بين هذه المحاضرات والكمال الذي أتصوره لها مراحل فساحاً ، وأن عمل الانسان أبداً في حاجة الى الاصلاح ، وأن الخطوات العلمية لا تسدد إلا بالنقد يُسْهم فيه كل من عنَّ له رأي صالح ، وأنه ما من أحد يصغر عن أن يَنْقُد كما أنه ما من أحد يكبر عن أن يُنْقَد . ولست أضمن من عملي هذا اكثر من أني بذلت فيه جهداً بإخلاص ؛ فان خرج منه قارئه المتقف ممتلئاً إيماناً بالعربية وخصائصها ومنطقيتها ثم بتقصيرنا حيالها التقصير الاكبر ، رجوت أن يكون من ذلك حافز للقادرين على الاتمام ، وكان ذلك حسبي من جهدي .

أسأل الله أن يجعلنا في عداد النافعين المنتفعين « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » وأن يزيدنا علماً وعملاً صالحاً ، ويأخذ بأيدينا جميعاً إلى مافيه خير البلاد والعباد .

دمشق : كلية الآداب

١٣٧٠ هـ — ١٩٥١ م

سعيد الأفغاني

قواعد النحو وتصنيفها ؛ فقد كانت حوادثه المتتابعة نذير الخطر الذي هب على صوته أولو الغيرة على العربية والاسلام ، ولا بأس من عرض تاريخي سريع لبعض أحداثه المتتابعة :

بدأ اللحن قليلا خفيفاً منذ ايام الرسول على ما يظهر ، فقد لحن رجل بحضرته فقال : « أرشدوا أخاكم فانه قد ضل » (١) والظاهر ايضاً أنه كان معروفاً بهذا الاسم نفسه « اللحن » بدليل ان السيوطي روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « أنا من قريش ونشأت في بني سعد فأنى لي اللحن » (٢) وقد كان أبو بكر الصديق يقول : « لأن أقرأ فأسقط أحب إلي من أن أقرأ فألحن » .

فاذا بلغنا عهد عمر رأينا المصادر تثبت عدداً من حوادث اللحن ، فتذكر أن (٣) عمر مر على قوم يسيئون الرمي فقرعهم فقالوا : « إنا قوم **متعلمين** » فأعرض مغضباً وقال : « والله لخطؤكم في لسانكم أشد علي من خطئكم في رميكم » وورد الى عمر كتاب أوله : « **من أبو موسى الاشعري** » فكتب عمر لأبي موسى بضرب الكاتب (٤) سوطاً . والأنكى من ذلك تسرب اللحن إلى قراءة الناس للقرآن فقد قدم أعرابي في خلافة عمر فقال : « من يقرئني شيئاً مما أنزل على محمد ؟ » فأقرأه رجل سورة براءة فقال : « وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر أن الله بريء من المشركين **ورسوله** ...»(٥) فقال الأعرابي : « إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه »

---

(١) الخصائص لابن جنى ٢/٨ (مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٥) . وروي في ارشاد الاريب عن عبد الله بن مسعود ١/٨٢

(٢) المزهر للسيوطي ٢/٣٩٧ طبعة (دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة) بعناية محمد احمد جاد المولى ورفيقيه ، ورواه السيوطي في الجامع الصغير عن الطبراني وقد ضعفه المحدثون .

(٣) ارشاد الاريب ١/٦٧ مطبوعات دار المأمون ،

(٤) هو ابو الحصين بن ابى الحر العنبري كما في وفيات الاعيان (٥/٩٩) ، وكان ابو موسى قد استكتبه بعد زياد .

(٥) سورة التوبة ٩/٣

فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه فقال : « يا أمير المؤمنين ، إني قدمت المدينة ... وقص القصة فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابي» فقال: « كيف هي يا أمير المؤمنين؟ » فقال: « ... أن الله بريء من المشركين ورسولـه .. » فقال الأعرابي: « وأنا أبرأ ممن برئ الله ورسولـه منهم » . فأمر عمر ألا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة . »(١) ولعمر تنسب تلك القولة المأثورة: « تعلموا العربية فانها تثبت العقل وتزيد في المروءة »(٢).

وتكاد قصة بنت أبي الأسود تكون المعلم المشهور في تاريخ النحو : فقد دخل عليها أبوها في وقدة الحر بالبصرة « فقالت له : « يا أبت ما أشدُّ الحر ! » رفعت (أشد) فظنها تسأله وتستفهم منه : أيّ زمان الحر أشد ؟ فقال لها « شهرا ناجر . » فقالت : « يا أبت إنما أخبرتك ولم أسألك. »(٣)

وتتقدم خطوة في الزمن فيقص علينا ابن قتيبة أن رجلا دخل على زياد فقال له: «ان ابينا هلك وان أخينا غصبنا على ميراثنا من ابانا » فقال زياد : « ماضيعت من نفسك اكثر مما ضاع من مالك » وأن أعرابياً سمع مؤذناً يقول : « اشهد ان محمداً رسولَ الله » فقال : « ويحك ، يفعل ماذا ؟ »(١) .

---

(١) نزهة الالباء ص ٧ وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/١١٠ مطبعة الترقي بدمشق ١٣٥١ هـ وانظر الخصائص لابن جني ٢/٨ وعيون الاخبار وانظر مراتب النحويين ص ٨ هذا وروايات اللحن في هذه الآية لاتتفق على وتيرة، فمنها ما يجعل هذه القصة في زمن زياد ، وان زياداً هو الذي طلب من أبي الاسود وضع شيء يقيم عوج الالسنة اللاحنة فأبى ابو الاسود «فبعث زياد رجلا يقعد له بطريقه ، وأمره أن يقرأ شيئاً من القرآن ويتعمد اللحن ، فقرأ :«.. أن الله بريءٌ من المشركين ورسوله..» بالجر ، فاستعظم ذلك ابو الاسود وقال : « عز وجه الله، ان الله لايبرأ من رسوله » ثم رجع من فوره الى زياد فقال : « ياهذا قد اجبتك الى ماسألت» انظر كتاب (الفباء) للبلوي ١/٤٦ . ولايبعد الجمع بين الروايات .

(٢) ارشاد الاريب ١/٧٧ وفي ص (٧٨) ان الزهري كان يقول : «ما احدث الناس مروءة احب الي من تعلم النحو » . هذا وقد زعموا ان عمر بن الخطاب كان يضرب اولاده على اللحن ولايضربهم على الخطأ (ص ٧٩) وان ابنه عبد الله كذلك (ص ٨٩)

(٣) وتتمة الخبر في الاغاني للاصفهاني (١١/١٠١) : انه دخل على امير المؤمنين علي بن ابي طالب فقال : ياأمير المؤمنين ذهبت لغة العرب لما خالطت العجم ، واوشك ان تطاول=

وأن أعرابياً دخل السوق «فسمعهم يلحنون فقال : سبحان الله ! يلحنون ويربحون ونحن لانلحن ولانربح !»(١)

وروى الجاحظ ان « اول لحن سمع بالبادية : هذه عصاتي (بدل عصاي) ، وأول لحن سمع بالعراق : حي على الفلاح (بكسر الياء بدل فتحها)»(٢)

ثم شاع في العصر الاموي حتى تطرق الى البلغاء من الخلفاء والامراء كعبد الملك والحجاج . والناس يومئذ تتعايربه ، وكان مما يسقط الرجل في المجتمع ان يلحن ، حتى قال عبد الملك وقد قيل له (أسرع اليك الشيب) : « شيبني ارتقاء المنابر مخافة اللحن (٣) . وكان يقول : « ان الرجل يسألني الحاجة فتستجيب نفسي له بها فاذا لحن انصرفت نفسي عنها(٤) وكان يرى اللحن في الكلام اقبح من التفتيق في الثوب النفيس (٥) .

والحجاج على أنه من الخطباء الأبناء البلغاء ، كان في طبعه تقزز من اللحن ان يقع منه او من غيره ، فاذا وقع منه حرص على ستره وابعاد من اطلع عليه منه ، ذكروا انه سأل يحيى بن يعمر الليثي : « أتسمعني ألحن على المنبر ؟ » فقال يحيى : « الامير افصح الناس الا انه لم يكن يروي الشعر » قال : « أتسمعني ألحن حرفاً ؟ » قال « نعم ، في آي القرآن » قال : « فذاك أشنع ؛ وماهو ؟ » قال تقول :

=عليها زمان ان تضمحل» واخبره خبر ابنته ..فأملى عليه : أن الكلام كله لايخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى .) وهذا القول اول كتاب سيبويه . ثم رسم أصول النحو كلها فنقلها النحويون وفرعوها ١٠ ه قلت : هذه احدى روايات مشهورة في اولية النحو . وبعد صفحة نجد ابا الفرج يروي عن ابن ابي الاسود قوله : « اول باب وضعه ابي من النحو : التعجب ».

وفي الحادث الذي حفز ابا الاسود على وضع ماوضع روايات عدة قد يأتي بعضها في باب الخلاف وانظر واحدة يرويها الزبيدي في كتابه طبقات النحويين واللغويين ص ١٥

(١) عيون الاخبار ١٥٩/٢ . ومر ابو عمر بن العلاء بالبصرة فاذا أعدال مطروحة مكتوب عليها : (لابو فلان) فقال : «يارب يلحنون ويرزقون» انباه الرواة ٣١٩/٢

(٢) البيان والتبيين ٢١٩/٢

(٣) مخطوطة الظاهرية من تاريخ دمشق لابن عساكر رقم ٢٢ تاريخ ج ٥ الورقة ٤٩٠ ١/

(٤) من رسالة للجاحظ في صناعة القواد ، ص ٢٦٠ (رسائل الجاحظ جمع السندوبي

(٥) عيون الاخبار ١٥٨/٢ ومن قول ابنه مسلمة « اللحن في الكلام اقبح من الجدري في الوجه»

« قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها أحبَّ اليكم من الله ورسوله .. » (١) تقرؤها (أحب) بالرفع ، فأنف الحجاج ان يطلع له رجل على لحن فبعث به الى خراسان (٢) . وكان الحجاج يعجب بفصاحة يحيى هذا فسأله يوماً : «اخبرني عن عنبسه بن سعيد : أيلحن؟» قال : « كثيراً » قال : « أفأنا ألحن ؟ » قال: « لحناً خفيفاً » قال : « كيف ذلك؟» قال تجعل (أنّ : إنّ) و (إنّ : أنّ) ونحو ذلك . قال : « لاتساكني ببلد ، اخرج (٢) » وكان الرجل إذا أراد أن يفلت من عمل للحجاج عاذ باللحن فنجا (٣)

وهؤلاء تطرق اليهم قليل من اللحن لبعدهم عن قومهم في الجزيرة مع انهم نشؤوا فيها وترعرعوا واكتهلوا ، فلما كان مَن بعدهم عظم فشو اللحن فيهم حتى كان من اعظم المصائب في نفس عبد الملك أن ابنه الوليد لحانة ،وأنه أخذه بتعلم العربية فلم يفلح. ونقلوا عن عبد العزيز بن مروان الامير الاموي المعروف وهو أخو عبد الملك لحناً ، على ان عبد العزيز هذا وهو من أفصح الناس كان « يعطي على العربية ويحرم على اللحن، حتى قدم عليه زوار من اهل المدينة وأهل مكة من قريش فجعل يقول للرجل منهم : « من أنت ؟ » فيقول: « من بني فلان . » فيقول للكاتب : « أعطه مئتي دينار» ..

---

(١) سورة التوبة ٩ / ٢٤ .

(٢) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٤ / ٦٥ (روضة الشام ١٣٣٢ هـ) وطبقات النحويين واللغويين ص ٥ .

ذكر ابن قتيبة : ان الحجاج أم قوماً فقرأ « والعاديات ضبحا » وقرأ في آخرها : « أن ربهم بهم يومئذ خبير » ينصب (ان) ثم تنبه على اللام في (لخبير) وأن (ان) قبلها لاتكون الا مكسورة فحذف اللام من (لخبير) فقرأ : « أن ربهم بهم يومئذ خبير » . ـ عيون الاخبار ٢/١٦٠ . ومع هذا فقد روي عن الاصمعي قوله : « أربعة لم يلحنوا في جد ولاهزل : الشعبي وعبد الملك والحجاج بن يوسف وأبن القرية ، والحجاج افصحهم ـ أمالي الزجاجي ص ١٥

(٣) في اشاد الاريب (١/٨٧) : بعث الحجاج الى والي البصرة : ان اختر لي عشرة ممن عندك فاختار رجالاً منهم كثير ابن ابي كثير وكان رجلا عربيا ، قال كثير : فقلت في نفسي : « لاأفلت من الحجاج الا باللحن . » . فلما ادخلنا عليه دعاني فقال : «ما اسمك ؟ » قلت : «كثير» قال : «ابن من ؟ » فقلت . . (ابن اباكثير) فقال :« عليك لعنة الله وعلى من بعث بك، جئوا في قفاه.» فأخرجت

الاحتجاج

في اللغة العربية

الاحتجاج

١ — مقدمة تاريخية ، — ٢ — العلوم التي يحتج لها ٣ — من يحتج به ، ٤ — ما يحتج به ، ٥ — بعض قواعد في الاحتجاج، ٦ — خاتمة .

(١)

مقدمة تاريخية

يراد بالاحتجاج هنا إثبات صحة قاعدة ، أو استعمال كلمة أو تركيب، بدليل نقلي صح سنده الى عربي فصيح سليم السليقة على ماسيأتي تفصيله في موضعه .

وإنما احتاج القوم الى الاحتجاج لما خافوا على سلامة اللغة العربية بعد أن اختلط اهلها بالاعاجم إثر الفتوح وسكنوا بلادهم وعايشوهم، ونشأ عن ذلك بسنة الطبيعة أخذ وعطاء في اللغة والافكار والاخلاق والأعراف . وتنبه أولو البصر الى ان الامر آيل الى إفساد اللغة وضياع العصبية من جهة ، والى التفريط في صيانة الدين من جهة ثانية، اذ كانت سلامة أحكامه موقوفة على حسن فهم المستنبط لنصوص القرآن الكريم والحديث الشريف ، وكان في ضعف العربية تضييع لهذا الفهم .

يعتبر اللحن الباعث الاول على تدوين اللغة وجمعها . وعلى استنباط

حتى جاءه رجل من بني عبد الدار فقال : « من أنت ؟ » فقال : «من بنو عبدالدار» فقال : «تجدها من جائزتك » وقال لكاتبه : «أعطه مئة دينار » (١)

وهذامعاوية بن بحير والي البصرة تشغله لحنة الناعي عن مصيبته بأبيه فيقدّم انكارها

فانت تجد مما تقدم ان الخوف على العربية له مايبرره من النذر ، وانه تمكن في النفوس حتى تضافرت جهود العلماء وذوي السلطان على صيانة العربية ، وأن الحرمان

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (مخطوطة الظاهرية رقم ٢٢ تاريخ ج ٥ الورقة ٤٥٠/١).

هذا ومن المفيد ذكر الباعث على عناية عبد العزيز بن مروان بالعربية فقد روى ابن عساكر قبل هذا الخبر أنه « دخل على عبد العزيز رجل يشكو صهراً له فقال : « ان ختني فعل بي كذا وكذا » فقال لعبد العزيز : «من ختنك ؟ «فقال له « ختنني الختان الذي يختن الناس » فقال عبد العزيز لكاتبه :«ويحك ، بم اجابني ؟» فقال له : « ايها الامير انك لحنت وهو لا يعرف اللحن ، كان ينبغي ان تقول له : « ومن ختنُك؟ » فقال عبد العزيز : «اراني اتكلم بكلام لا يعرفه العرب ، لاشاهدت الناس حتى أعرف اللحن . » فأقام في البيت جمعة لايظهر ومعه من يعلمه العربية ، فصلى بالناس الجمعة وهو من افصح الناس.»اهـ.قلت:تروى هذه اللحنة للوليد بن عبد الملك : انظر ص ١٤٣ من (نقد النثر) المنسوب لقدامة (مطبعة التأليف والترجمة والنشر : القاهرة ١٣٥٩ هـ)

وانظر في لحنه ايضاً البيان والتبيين للجاحظ (٢/ ٢٠٤) فما بعد (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٦٨هـ)

أما أمر الوليد الذي مر آنفاً فقد أهم عبد الملك حتى أفضى بذات نفسه يوماً الى روح ابن زنباع قائلا :

« يأبا زرعة ، قد غلبني الوليد باللحن ، وسأظهر العشية كآبة فسلني عنها ودعني والوليد» فلما أذن العشاء أظهر كآبة وعنده الوليد وسليمان وروح فقال له روح :«ماهذه الكآبة يا امير المؤمنين ؟ لايسوؤك (الله) ولايريك مكروهاً! » قال : ذكرت مافي عنقي من هذه الامة والى من اصيّر امرها بعدي ؟» قال له روح : يغفر الله لك يا امير المؤمنين . فأين انت عن الوليد سيد شباب العرب ؟» قال: «يابازرعة ، لاينبغي ان يلي امر العرب الامن يتكلم بكلامها» فقام الوليد فدخل منزله ووجه اليه اصحاب النحو ، فاقام ستة اشهر معهم ، وخرج يوم خرج وهو اجهل بالنحو منه يوم دخل ، فقال عبد الملك : «قد اجهدوا عذر» المصدر السابق ، الورقة ٤٢١/١

واحتج على عبد الملك بلحن الوليد هذا ، فقد ذكر ابن عساكر ان عبد الملك قال لرجل من ـــ

من المال او العمل مما كان يصيب اللحانة ، وأن فصاحة المرء قد ترفعه الى الولايات والغنى وتزيد شأنه عند أولي الامر ؛وهذامن طرف السلطان كاف في الترغيب والترهيب. وسؤال الحجاج عن لحن بعض الناس ذوي الشأن مشعر باهتمام الحكومة والمجتمع بأمر اللحن . وذلك طبيعي من دولة قامت على العصبية العربية بعدان رأت اللحن يفشو في الطبقات الرفيعة من الامراء والحكام وأشراف الناس ،وفي قصة بشكست النحوي تعبير واضح عن امرين : فشو اللحن ونظرة المثقفين اليه ، ولابأس في ايرادها ففيها طرافة وفيها ظرف :

« وقد بشكست النحوي على هشام بن عبد الملك ، فلما حضر الغداء دعاه هشام ، وقال لفتيان بني أمية : « تلاحنوا عليه » ، فجعل بعضهم يقول : « ياأمير المؤمنين رأيت ابي فلان .. » ويقول آخر : « مر بي أبي فلان .. » ونحو هذا ؛ فلما ضجوا أدخل يده في صحفة فغمسها ثم طلى لحيته وقال لنفسه :« ذوقي ، هذا جزاؤك في مجالسة الانذال ! »(١)

—قريش: «انك لرجل لولا انك تلحن» فقال: «وهذا ابنك الوليد يلحن» قال عبد الملك: «لكن ابني سليمان لايلحن » قال الرجل :«واخي فلان لايلحن!» الورقة ١/٤٢٤

وكان لايستطيع تجنب اللحن حتى على المنبر ، ذكره ابو الزناد يوماً فقال: « كان لحاناً كأني أسمعه على منبر النبي صلى الله عليه وسلم يقول: يا اهل المدينة!»

بل كان لايستطيع تجنبه حتى في آيات القرآن : قرأ يوماً على المنبر « ياليتها كانت القاضيةُ » وضم التاء ، فقال عمر بن عبد العزيز (وكان تحت المنبر):«ياليتها كانت عليك وأراحتنا منك!» الورقة ١/٤٢٤ .

وكان عمر بن عبد العزيز هذا أشد الناس في اللحن على ولده وخاصته ورعيته وربما أدّب عليه . — إرشاد الاريب ١/٨٩

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (مخطوطة الظاهرية) الجزء السابق الورقة ١/٤٥٤ ثم قال ابن عساكر فيه : « وكان نحوياً أخذ عنه أهل المدينة ، وكان يذهب مذهب الشراة ويكتم ذلك ، فلما ظهر ابو حمزة الشاري بالمدينة (سنة ١٣٠ هـ) خرج معه فقتل فيمن قتل بخلافة مروان بن محمد . » واسمه عبد العزيز القاري وقيل في مقتله : —

الى هذا المدى بلغ أمر اللحن في المئة الاولى للهجرة والدولة عربية محضة ، والعصبية ذات سلطان ، والقوم حديثو عهد بجزيرتهم ولا تزال مجتمعاتهم تتناقل القول المشهور (ليس للاحنٍ حرمة) وتتعامل به ، وبيت الخلافة أعرق بيوت قريش شرفاً ومجداً وبلاغة وأقواها عصبية وعروبة. (١) فلنحاول تبيان مااختط أهل العربية من خطط يعالجون بها

— لقد كان يشكست عبد العزيز من اهل القراءة والمسجد
فبعداً لبشكست عبد العزيز وأما القران فلا يبعد

انظر النسخة الثانية من تاريخ دمشق لابن عساكر (رقم ٣٣٧٤/٩ تاريخ) ١٠ الورقة ٢٠٢ ، والاغاني ١١١/١ و ١٠٨/٢٠ و ١١٠ وإنباه الرواة ١٨٣/٢

(١) هذا ومع ضعف السليقة العربية على الزمن لم يضعف استهجان الخاصة للحن وحسبك هذه الحوادث الاربع رمزاً الى ذلك وكلها في صدر الدولة العباسية :

تكلم ابو جعفر المنصور في مجلس فيه اعرابي فلحن ، فصرّ الاعرابي أذنيه [حددهما مصغياً باهتمام] ، فلحن مرة أخرى أعظم من الاولى فقال الاعرابي : « أف لهذا : ما هذا » ثم تكلم فلحن الثالثة فقال الاعرابي : « أشهد لقد وليت هذا الامر بقضاء وقدر !! »

وقال سعيد بن سلم : « دخلت على الرشيد فبهرني هيبة وجمالا ، فلما لحن خفّ في عيني » ودخل رسول والي الكوفة العباس بن محمد بن موسى على طاهر بن الحسين فقال له : « أخيك أبي موسى يقرأ عليك السلام » قال : « وما أنت منه ؟ » قال : « كاتبه الذي يطعمه الخبز » فأمر تواً بصرف العباس عن الكوفة إذ لم يتخذ كاتباً يحسن الأداء عنه .

إرشاد الاريب ٨٤/١ ، ٨٣ ، ٨٦ بتصرف يسير .

بل إن المأمون كان يأخذ عماله باللوم إذا كان في كتبهم إليه لحن وبعد ذلك تفريطاً في جانب مقام الخلافة وإليك حديث ابن قادم النحوي الكوفي :

« وجه إلي اسحاق بن ابراهيم المصعبي يوماً فأحضرني فلم أدر ما السبب ، فلما قربت من مجلسه تلقاني ميمون بن ابراهيم كاتبه على الرسائل وهو على غاية من الهلع والجزع ، فقال لي بصوت خفي : « إنه إسحاق » ومر غير متلبث ولا متوقف حتى رجع إلى مجلس إسحاق ، فراعني ذلك ، فلما مثلت بين يديه قال لي : كيف يقال : « وهذا المال مالاً » أو « وهذا المال مال » ؟ فعلمت ما أرادميمون ، فقلت له : « الوجه (وهذا المال مال) ويجوز (وهذا المال —

استفحال الداء ، وهل كانوا الى الشدة حين شرطوا للاحتجاج تلك الشروط التي أسقطت الاحتجاج بكلام كثير من العرب حتى في زمن الجاهلية؟

(٢)

العلوم التي يحتج لها

يحتج بالكلام العربي لغرضين : غرض لفظي ويدور حول صحة الاستعمال من حيث اللغة والنحو والصرف ، وغرض معنوي لاعلاقة له باللفظ . والظاهر أن فريقاً من العلماء حجّر واسعاً فأسقط الاحتجاج

— مالاً)» ، فأقبل إسحاق على ميمون بغلظة وفظاظة ثم قال : « الزم الوجه في كتبك ، ودعنا من يجوز ويجوز » ورمى بكتاب في يده ، فسألت عن الخبر فإذا ميمون قد كتب إلى المأمون وهو ببلاد الروم عن اسحاق وذكر مالاً حمله ، فكتب : « وهذا المال مالاً » فخط المأمون عل الموضع من الكتاب ووقع بخطه في حاشيته :

« تخاطبني بلحن ؟! » فقامت القيامة عل اسحاق !! » .

فكان ميمون بعد ذلك يقول : « ما أدري كيف اشكر ابن قادم ، أبقى عليّ روحي ونعمتي!! » قال ثعلب راوي الحديث : « فكان هذا مقدار العلم وعلى حسب ذلك كانت الرغبة في طلبه والحذر من الزلل . قال « وهذا المال مالاً » ليس بشيء ، ولكن أحسن ابن قادم في التأني لخلاص ميمون . » — إنباه الرواة ٣/١٥٧ وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ١٥٣ .

حتى إذا امتد الزمن خف الاستنكار شيئاً ما فصرنا نرى ثعلباً النحوي « لا يتكلف إقامة الاعراب في كلامه إذا لم يخش لبساً في العبارة » ونرى إبراهيم الحربي وقد ذكر له ذلك يقول : « أيش يكون إذا لحن في كلامه ؟ كان هشام النحوي يلحن في كلامه ، وكان أبو هريرة يكلم صبيانه بالنبطية . » — إنباه الرواة ١ /١٤٠

بل كان بعض الأمراء بالبصرة يقرأ (إن الله وملائكتُه) بالرفع فمضى إليه الأخفش ناصحاً له فانتهره وتوعده وقال « تلحّنون أمراءكم ؟! » — إنباه الرواة ٢ /٤٣

بكلام الاسلاميين والمولدّين في اللفظ والمعنى جميعاً ، ولم يلتفت الجمهور الى هذا التحجير لعقمه وبعده عن طبيعة الحياة ، بل قصروا الاحتجاج بكلام المولّدين على المعاني فقط ، واحتجوا بكلام القدماء في اللفظ والمعنى . وخير من يمثل هؤلاء ابن جنى ، فقد احتج في باب المعاني بشعر المتنبي وهو مولّد ، ولعله توقع إنكاراً من المتزمتين فأتبع احتجاجه بعلة مقبولة معرّضاً بمذهب التزمت هذا ، قال في صدد كلامه على مجيء القول والكلام مما لا يعقل :

« قال عنترة :

لو كان يدري: ما المحاورة؟ اشتكى ولكان ـ لو علم الكلام ـ مكلمي

وامتثله شاعرنا (يعني المتنبي) آخراً فقال :

فلو قدر السنان على لسانٍ لقال لك السنان كما أقول

وقال :

لو تعقل الشجر التي قابلتها مدت محييةً إليك الأغصنا

ولا تستنكر ذكر هذا الرجل — وإن كان مولداً — في أثناء ما نحن عليه من هذا الموضع وغموضه ، ولطف متسرّبه ، فإن المعاني يتناهبها المولدون كما يتناهبها المتقدمون ، وقد كان أبو العباس (يعني المبرد) — وهو الكثير التعقب لجلة الناس — احتج بشيء من شعر حبيب بن أوس الطائي في كتابه (الاشتقاق) لما كان غرضه فيه معناه دون لفظه فأنشد فيه له :

لو رأينا التوكيد خطة عجز ماشفعنا الأذان بالتثويب

واياك والحنبلية بحتاً ، فإنها خلق ذميم ، ومطعم على علاته وخيم»[1]

ثم استقر الرأي على ما فصّل ابن جنى من أئمة المئة الرابعة للهجرة ، ففصلوا بين العلوم التي يحتج لها بكلام القدماء والعلوم التي يحتج لها بكلام الفصحاء عامة قدماء ومولدين ، وتبلور هذا الرأي وأصبح من المسلمات، فهذا عبد القادر البغدادي صاحب خزانة الأدب ومن أعيان العلماء في المئة الحادية عشرة يعبر عنه بعد سبعة قرون بنقله كلام الرعيني الاندلسي من علماء المئة الثامنة في شرح بديعية رفيقه ابن جابر ، قال الرعيني :

« علوم الأدب ستة : اللغة والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع؛ والثلاثة الاولى لا يستشهد عليها الا بكلام العرب (يريد القدماء) دون الثلاثة الاخيرة فإنه يستشهد عليها بكلام المولدين لأنها راجعة الى المعاني، ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم إذ هو أمر راجع الى العقل ، ولذلك قبل من أهل هذا الفن الاستشهاد بكلام البحتري وأبي تمام وأبي الطيب وهلم جرا . »[2]

---

(١) الخصائص ١/٢٤ والتثويب إشارة المنادي بثوبه وصوته

(٢) خزانة الادب للبغدادى ١/٢٠ (المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٨ هـ) .

(٣)

من يحتج به

بحث علماء العربية فيمن نقل الرواة عنهم من أهل المدر والوبر قدماء ومحدثين ، وتقصوا أحوالهم ونقدوها ، فاجتمعوا على الاحتجاج بقول من يوثق بفصاحته وسلامة عربيته ، ونحن عارضون لأصناف هؤلاء زماناً ومكاناً وأحوالاً :

فأما الزمان فقد قبلوا الاحتجاج بأقوال عرب الجاهلية وفصحاء الاسلام حتى منتصف القرن الثاني سواء أسكنوا الحضر أم البادية . أما الشعراء فقد صنفوا أصنافاً أربعة : جاهليين لم يدركوا الاسلام ، ومخضرمين أدركوا الجاهلية والاسلام ، وإسلاميين لم يدركوا من الجاهلية شيئاً ، ومحدثين أولهم بشار بن برد .[1] . والاجماع انعقد على صحة الاستشهاد بالطبقتين الاوليين واختلفوا في الطبقة الثالثة ، وذهب عبد القادر البغدادي صاحب خزانة الادب الى جواز الاستشهاد بها [2] اما الطبقة الرابعة فلا يستشهد بكلامها في علوم اللغة والنحو والصرف خاصة. وكان آخر من يحتج بشعره على هذا الاساس بالاجماع ابراهيم بن هرمة

---

(١) الاقتراح ص ٣٢ .

(٢) خزانة الادب ١/٢٠

(٧٠ - ١٥٠ هـ) الذي ختم الاصمعي به الشعر [١] . أما أهل البادية فقد استمر العلماء يدونون لغاتهم حتى فسدت سلائقهم في القرن الرابع الهجري.

وعلى هذا « أجمعوا على أنه لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين في اللغة والعربية » [٢] .

وأما المكان أو بعبارة أخرى القبائل، فقد اختلفت درجاتها في الاحتجاج على اختلاف قربها أو بعدها من الاختلاط بالأمم المجاورة ، فاعتمدوا كلام القبائل في قلب جزيرة العرب ، وردوا كلام القبائل التي على السواحل او في جوار الاعاجم ، واليك تصنيف أبي نصر الفارابي لهم في الاحتجاج:

أ — « كانت **قريش** أجود العرب انتقاء [٣] للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما في النفس.

---

(١) الاقتراح للسيوطي ص ٢٢ (مطبعة المعارف بحيدر آباد ١٣١٠ هـ) . هذا وبعضهم يرى الاحتجاج بالطبقة الرابعة مستدلاً باستشهاد سيبويه بشعر بشار بن برد في (الكتاب) ، ويرد المعترضون بأنه إنما فعل ذلك خوفاً من لسانه .

(٢) المصدر السابق ص ٣١ وقد مال الزمخشري الى استثناء أئمة العربية من ذلك داعياً الى جعل الوثوق بكلامهم كالوثوق برواياتهم .

(٣) قال ابن فارس : (وكانت قريش مع فصاحتها .. اذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب .) - الصاحبي ص ٢٣ (المطبعة السلفية بالقاهرة) .

والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدي وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم :

قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين أُخذ عنهم أكثر ما أُخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف .

ثم **هذيل** وبعض **كنانة** وبعض **الطائيين** ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم (١) .

ب — وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الامم الذين حولهم :

لم يؤخذ من **لخم وجذام** فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط.

ولا من **قضاعة ولا من غسان ولا من إياد** فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام وأكثرهم نصارى يقرؤون بصلاتهم بغير العربية .

ولا من **تغلب ولا النمر** فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية .

ولا من **بكر** لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس .

ولا من **عبد القيس** لأنهم كانوا من سكان البحرين مخالطين للهند والفرس ،

---

(١) ومع هذا فلم تكن لغات هؤلاء بالمرضية دائماً : قال الحسن البصري يوماً (توضيت) فقيل له : (أتلحن يا أباسعيد ؟!) فقال (إنها لغة هذيل وفيها فساد) . انظر كتاب (الف باء) للبلوي ١ / ٤٦ .

ولا من **أزد عمان** لمخالطتهم للهند والفرس ،

ولا من **أهل اليمن** أصلاً لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة الحبشة فيهم.

ولا من **بني حنيفة** وسكان اليمامة ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم .

ولا من **حاضرة الحجاز** لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب، قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم..»[1]

---

(١) الاقتراح للسيوطي ص٢٢ نقلاً عن كتاب الفارابي (الالفاظ والحروف).

هذا وقد أورد الجاحظ في كتابه البيان والتبيين مقابلة طريفة بين لغات أهل مكة والبصرة والكوفة ، يفيد إيرادها في شرح الظاهرة المذكورة أعلاه ، قال الجاحظ: (أهل الامصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ، ولذلك نجد الاختلاف في الفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر .. وقال أهل مكة لمحمد بن مناذر الشاعر (ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة ، إنما الفصاحة لنا أهل مكة .) فقال محمد بن مناذر : (أما ألفاظنا فأحكى الالفاظ للقرآن وأكثرها موافقة له ، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم : أنتم تسمون القدر برمة وتجمعون البرمة على برام ، ونحن نقول (قدر) ونجمعها على قدور، وقال الله عز وجل (وجفان كالجواب وقدور راسيات) وأنتم تسمون البيت (علية) وتجمعون هذا الاسم على علالي ونحن نسميه (غرفة) ونجمعه على غرف وغرفات ، وقال الله « غرف من فوقها غرف مبنية » وقال :«هم في الغرفات آمنون » ، وأنتم تسمون الطلع (الكافور والاغريض) ونحن نسميه الطلع وقال الله « ونخل طلعها هضيم » ... فعد عشر كلمات لم أحفظ أنا منها غير هذا .

ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم ، ولذلك يسمون البطيخ (الخربز) ويسمون ... الخ . =

وكأن هذا التصنيف حاز القبول وجرى عليه العمل وكان الخروج عليه مدعاة الى النقد ، ولما اعتمد ابن مالك على لغات لخم وجذام وغسان ، تعقبه باللوم ابو حيان فقال في شرح التسهيل : « ليس ذلك من عادة أئمة هذا الشأن [١] » .

وأما أحوال هؤلاء العرب المحتج بهم فخيرها ما كان أعمق في التبدي وألصق بعيشة البادية ، ولذا كان مما يفخر به البصريون على الكوفيين أخذهم عن الأعراب اهل الشيح والقيصوم وحرشة الضباب وأكلة اليرابيع ويقولون للكوفيين « أخذتم عن أكلة الشوارز وباعة الكوامخ [٢] » . وقد نص الفارابي بعد قوله المتقدم آنفاً على صناعة

= وكذا أهل الكوفة يسمون المسحاة : (بال) وبال بالفارسية : ولو علق ذلك لغة أهل البصرة إذ نزلوا بأدنى بلاد فارس وأقصى بلاد العرب كان ذلك اشبه ، اذ كان أهل الكوفة نزلوا بأدنى بلاد النبط وأقصى بلاد العرب . ويسمي أهل الكوفة الحوك (البقلة الحمقاء) باذورج والبازورج بالفارسية والحوك كلمة عربية . وأهل البصرة إذا التقت أربع طرق يسمونها (مربعة) ويسميها اهل الكوفة (جهارسو) والجهار بالفارسية . ويسمون السوق او السويقة وازار والوازار بالفارسية . ويسمون القثاء خياراً والخيار فارسية . ويسمون المجذوم ويذي بالفارسية . — اه ١ /١٨ .

وبهذه الامثلة التي طغى فيها الاثر الاجتماعي على الأثر الجغرافي تدرك الحافز لعلماء العربية على اسقاط من أسقطوا في الاحتجاج من العرب في الجاهلية والاسلام .

(١) الاقتراح ص ٢٤ .

(٢) الشيراز اللبن المصفى ، والكامخ : ادام — انظر القاموس المحيط .